العالم الروائي

سعد محمد رحيم

هناك الآلاف من الكتّاب يجازفون في اقتحام حقل الكتابة الروائية إلا أن قلة قليلة منهم، فقط، بإمكانهم أن يخلقوا عوالم روائية تميزهم عن غيرهم، وهؤلاء هم الكتّاب العظام في تاريخ الرواية.

يسعى الروائي إلى إيجاد مقومات عالمه وهو ماض في عملية الكتابة. والعالم الروائي للكاتب يظهر من خلال كليّة أعماله. فعلى سبيل المثال ليست ثمة علاقة مباشرة بين ما يجري في رواية (آنا كارنينا) وما يجري في رواية (البعث) غير أن كلتا الروايتين تنتميان إلى عالم تولستوي الروائي. فلا يشترط أن يكون العمل الجديد مكملاً لعمل سابق، أو جزءاً تالياً يحوي تفاصيل ما آلت إليه الأحداث بعد الجزء الأول ويمكن أن يكون اختيار الأبعاد المكانية والزمانية مختلفاً تماماً من رواية الى أخرى ومع ذلك يبقى العالم الروائي واحداً للكاتب.

إن عوالم روايات (المسخ والقصر والمحاكمة) لفرانز كافكا ما هي إلا تنويعات لرؤية كافكا إلى مأزق الإنسان في العالم المعاصر تشكل في مجموعها عالم كافكا الروائي.

ليس العالم الروائي مكاناً مجرداً.. إنه إطار وجودي ونفسي وفكري لأفعال شخصيات معينة في بيئة ما.. إن الشيء المهم هنا هو الطريقة التي يتبعها الروائي في تشييد عالمه الخاص.. أسلوبه الذي يستخدمه في عملية التشييد هذه. وتبقى الزاوية التي منها ينظر الكاتب إلى عالمه لتأسيس وجهة نظر إزاءه هي الحاسمة في تأكيد أصالة ذلك العالم.

إن روايات مثل (القاهرة الجديدة، وزقاق المدق، وخان الخليلي، والثلاثية . بين القصرين، وقصر الشوق والسكرية) على الرغم من عدم وجود شخصيات تتكرر فيها جميعاً . باستثناء الثلاثية بطبيعة الحال وهذه يمكن عدّها رواية واحدة . فإن بصمات نجيب محفوظ الخلاقة تنشئ عبر هذه الروايات وغيرها عالماً روائياً خاصاً به يختلف عن العوالم الروائية للكتّاب الآخرين الذين كتبوا عن البيئات نفسها في الإطار الزماني عينه. ولكن نجيب محفوظ نجح أكثر مما نجح معاصروه بسبب أنه كان يكتب ملحمته الواقعية الكبرى بحساسية مبدعة وإيقاع أصيل.

لا ينشأ العالم الروائي خارج إطار الحضور الفاعل للروائي في العالم الواقعي.. فذلك العالم هو نتاج رؤية عميقة وحادة للوجود الإنساني والتي تتبلور في خضم علاقته . أي الروائي . بالكون والطبيعة والمجتمع والتاريخ.

إن روائيين عديدين كتبوا عن قاهرة النصف الأول من القرن العشرين فضلاً عن نجيب محفوظ أمثال يوسف إدريس ومحمد عبد الحليم عبد الله ويحيى حقي وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وغيرهم، فهل يمكن القول ان لهؤلاء جميعاً عالماً روائياً واحداً؟. بالتأكيد لا، ذلك أن لكل واحد منهم عالمه الروائي الخاص الذي يخلقه بأسلوبه وأفكاره ووجهة نظره.. إن لبعض هؤلاء عالمهم الروائي المتماسك الكثيف في حضوره ولبعضهم الآخر عالمهم الروائي المائع والمفتقر للملامح المميزة.. لقد دأب بعض الروائيين على ابتكار عوالم روائية متخيلة عن طريق إقامة مدن ومقاطعات وضعوا لها خرائط وحدوداً وخلقوا فيها شخصيات وأبطالاً جعلوهم في مواجهة أقدارهم ومصائرهم ليكابدوا في خضم ظروف مفترضة ولكن غير مقطوعة الصلة بظروف الحياة المعيشة.

رسم وليم فوكنر خارطة لمقاطعة لا وجود لها على أرض الواقع سمّاها (يوكنا باتوفا) وجعل عاصمتها (جفرسون) وكتب تحت تلك الخارطة المنشورة مع رواية (أبشالوم ابشالوم) ١٩٣٦ عبارة (المالك الوحيد وليم فوكنر).

إن معظم أحداث روايات فوكنر تجري في هذه المقاطعة وتتكرر شخصيات كثيرة في رواياته المتعاقبة، فشخصية ما قد تكون ثانوية في رواية ما نجدها وقد أصبحت رئيسة في رواية اخرى.. إن أفراد أسر آل سنوبس وآل سارتوريس وآل كمبس هم أبطال معظم رواياته وقصصه، وإن (يوكنا باتوفا) هي المملكة الأسطورية لفوكنر كما يقول مالكولم كاولي. ويرى روبرت بين وارن أنه (ليست هناك أرض في تاريخ الرواية كلها قد جرى تحليلها تحليلاً صبوراً متأنياً من الزاوية الاجتماعية مثلما فعل فوكنر بهذه الأرض) وهذه الأرض هي (يوكنا باتوفا) التي تشبه إلى أبعد الحدود المقاطعة التي عاش فوكنر نفسه فيها، وهي مقاطعة (لافايت) وعاصمتها أكسفورد. لقد خلق فوكنر عالمه الروائي المتخيل بعبقرية لا تضاهى من خلال إيجاد أبعاد زمانية ومكانية وشخصيات رمزية لا تمثل نفسها فقط وإنما تمثل الجنوب الأمريكي حيث ولد فوكنر وعاش، وليس هذا فقط وانما تمثل العالم الحديث وهو يتخبط وينهار أخلاقياً.

وحاول غابريل غاريسا ماركيز أن يفعل الشيء ذاته ويخلق عالمه الروائي المستقل . أسطورته الخاصة . فهناك إشارات لعوالم ثانوية في روايات معينة نعثر على تفاصيل لها في روايات أخرى، ومعها نجد حضور شخصياته في روايات عديدة بشكل عابر أحياناً، وأحياناً بشكل جلي ومؤثر.. هذا ما يحصل في روايات (مائة عام من العزلة، ليس لدى الكولونيل من يراسله، والحكاية العجيبة لأندريرا...الخ) وفي رواية (مائة عام من العزلة) أنشأ ماركيز قرية ماكوندو وجعلها تمتد في روايات لاحقة إلا أن ماكوندو ليست كل عالم ماركيز الروائي بل هي جزء أساسي منه. فعالمه الروائي هو المجموعة المتوافقة لرواياته والتي من خلالها يبرز أسلوب الكاتب وتظهر أفكاره ووجهة نظره، وفذاذة موهبته.

حامل الكتاب

محمد خضير

ظهر الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا في صورة التقطت له قبل وفاته، جالساً امام كتاب مفتوح، ولهب شمعة يبصبص في عمق الصورة، فيما كان رأس الفيلسوف مزوراً عن كتابه، ناظراً في بؤرة افكاره الغائبة عن الصورة بعينين ثاقبتين. يكرر دريدا في جلسته الوضع المتأمل للقديس اناستيوس في لوحة رامبرانت (١٦٣١ . متحف ستوكهولم الوطني) ، ويحضر بدلاً من (الفيلسوف والكتاب المفتوح) في لوحة رامبرانت الأخرى (١٦٣٣. متحف اللوفر)، مستعيراً من رسام الظلمة والنور، ومن ديلاتور الملقب برسام الشموع والجفون المغمضة ، لقب "قارئ الكتاب" الشارد بنظره عن صفحات الكتاب المفتوح بين يديه. الا ان دريدا بانتسابه إلى خلفيات رامبرانت وديلاتور المعتمة، بانتزاعه من شمعة القديسين المصورين في ايقونات عصر النهضة، بازوراره عن كتابه، باستغراقه في الحقيقة الغائبة عن المشهد، سترتحل صورته إلى مرتبة (أصحاب الكتاب) ، اولئك الذين اصبحنا بفضلهم (حاملي الكتاب) بعد ارتحالهم عن دنيانا .

سأروي اولا كيف يكتسب المرء لقب "حامل الكتاب" قبل ان اشفع هذه الفكرة بذكرياتي عن كتابي الاول، الذي نسبني إلى النخبة التي استحق افرادها لقب "صاحب الكتاب"، واعتقد ان اشخاصاً آخرين يملكون افكاراً مماثلة عن هذين اللقبين، حامل الكتاب قارئ متنقل، عارض للكتب التي يحملها في يديه بالدرجة الاولى، تظهره صورته إلى جانب وسطاء الكتاب المتعددين ضائعا في وسطهم.

وصاحب الكتاب: مؤلف له على وجه الخصوص، تظهره صورته وحيدا وسط العتمات والشموع، ايقونة على مذبح معبد. يختار حامل المكان واللحظة اللتين يظهر فيهما على الملأ ، كي ينتزع الكتاب الذي يحمله الصعقة من عيون الناظرين، الا انه سرعان ما يدخل في شرود الايقونة التي تصوره غائبا عن الحاضرين ، مغادراً موقعه بينهم، راحلا عبر الحدود الاقليمية، يقايض مصيره بكتابه، كما قايض لاو تسي صاحب كتاب (تاو . تي . كنج) رجال الكمرك بكتابه ، كي يسمحوا له بمواصلة السفر على دابته مع تلميذه. اصبح صاحب الكتاب لاو تسي بهذه المقايضة " حامل كتاب" تجيب اشعاره عن اسئلة الطريق بكلمتي "نعم" و " لا" حسب مشيئة القارئ المواقفة أو المعارضة من دون الزام أو اكراه. وقيل ان الفيروز آبادي كان يسافر بصحبة احمال من كتبه، وان كتب الامام احمد بن حنبل بلغت اثني عشر جملاً، دلالة على ان أصحاب الكتب هم حاملوها أيضاً.

قبل ان اروي حادثتي عن حامل الكتاب، ساعرج على وسطاء الكتاب: خازنه، وبائعه، ومجلده، والى هذا الاخير ينتهي الكتاب كي يرممه، ويضفي عليه مظهراً مكتبياً مهيباً، يذهب الكتاب بعدئذ ليخزن في المكتبة بكعبه الجلدي، يصنف ويرقم ، قبل ان يعار إلى قارئ مؤقت، يحمله إلى حين ولا يتيسر له ان يتملكه ، شأنه في ذلك شأن وسطاء الكتاب. لكني كنت على استعداد للتنازل عن القاب ملكيتي لمجلدي الكتب مقابل ان يسمحوا لي بمشاركتهم محترفات عملهم، اراقبهم يعملون واستمتع باكداس المجلدات المرصوصة تحت المكبس الحديدي الثقيل، أو تلك المهيأة للخياطة والتغليف. بعد طواف يومي بين ارصفة باعة الكتب في سوق البصرة القديمة، كنت افوز بجزء مفقود من معجم أو موسوعة متعددة الاجزاء، احمله مسرعا إلى دكان مجلد بارع لا ابرحه الا وانا احتضن كتابا سلخ جلده القديم وغطي بجلد طري خشن الملمس . لطالما احببت الاغلفة الخشنة التي تمنح الكتاب شكلا بدائيا يكتم الانفاس، واحساساً بان قراءته تعني احياء لقوى العلامات المستكنة بين الصفحات، كأنها نذور معبد. اوحي لي عمل المجلد إلى نتعدد المراحل بمفهوم الانقضاض على الكتاب، الخرز والخياطة والتصميغ، ثم الكبس الشديد ، تشذيب الورق، قبل حمله وامتلاكه. خرجت من دكان المجلد وفي يدي المجلد الثاني من معجم " المساعد" للاب انستاس ماري الكرملي في غلاف اسود محبب. جمع الاب الكرملي مادة معجمه من المستدركات التي دونها ، بحروف وعرة ، على هوامش المعاجم اللغوية في خزانته، جرب الكرملي عمليات المجلدين بالانقضاض على ملاحظاته المتفرقة على الصفحات يسلخها ويكبسها ويغلفها سأغير مثله على مواد معجمه فاحسوها بهوامشي، الهوامش التي ستمد نصوصي بعصارات لغوية تتوجني بما توجت الاب الكبير، فاستحق لقب " صاحب الكتاب" كما استحقه من جمع اشتات المعاجم وهوامشها. وهل أكثر من صورة باقية للاب انستاس الكرملي بلحيته الطويلة. اشارة دالة على الوجود المكتبي الذي انشأه في دير الاباء الكرمليين ببغداد؟

كنت اسرع الخطى . وهنا ادرك الحادثة التي بدأت من دكان مجلد الكتب . سابقا الليل إلى مرأب الحافلات المتطرف في ناحية من السوق القديمة. في ليلة من شتاء الاعوام التسعينية السالفة "المجدبة والحزينة" ، اخترت العودة إلى البيت في حافلة عمومية، من مجموعة حافلات صفر، نوع شوفرليت " بلو بيرد" مخصصة لنقل الطلاب، حولت إلى الخط الذي ينقل العامة من مرآب السوق، وكانت الساعة المتباطئة قد احتجزت اخر حافلة منها بانتظار اخر راكب تلفظه السوق. انزويت تحت مظلة الانتظار المحاذية للحافلة المتوقفة، انقل كتابي من يد إلى يد، مراقبا امتلاء المقاعد عن اخرها بالهموم، والاثقال، بعدول وزنابيل فاكهة وخضروات، باكف فارغة واخرى بمخروطات ورقية معبأة ببذور زهرة الشمس المجففة، ببلاد تطحن قهرها مع قشور البذور أو تلفظها بصمت. في هذه الساعة، يحين موعد صعودي إلى الحافلة المحشورة بالوجوه الساهمة، مع كتابي ا لمغلف بغلاف اسود سميك. اتمسك باحد العمودين القائمين في مقدمة الحافلة على جانبي الممر الفاصل بين المقاعد ، وألبث واقفا في مكاني. تطلعت العيون المظللة باليشامغ إلى الراكب الاخير، وفرزته حالا على انه " حامل الكتاب" ، القارئ الخبير بتأويل الرموز المعماة، عدا كونه المدون المبتدع للاخبار المصفاة، قصاص البلاد الواسعة التي تختفي في هذه الساعة وراء ستار الخوف والظلام. فوراً وزن خبراء السوق العارفون الشئ الخطير الذي احمله بما يعدل اطنانا من زهرات الشمس، وبالات الخلقان، وكرات الحلوى المرصوصة بالتمر والسمسم، وزنوا الكتاب الاسود بما يعدل بحارا من السر المكنون في الصدور. ظهرت امامهم " كوديا" يحمل كتاب سلالته بين يديه، ويلقي باوزار رؤياه على كتفيه، صنما اسود يكرر ظهوره كل مساء ، ويقود الحافلة الصفراء إلى اعماق الخوف. منذئذ وانا اختار الحافلة الاخيرة، ركاب الليل العائدين ببضاعة خاسرة، وآمال مؤجلة اعرض عليهم كتاب الذي احمله انتزع من عيونهم مقايسات المفاجأة والتأثير، استشعر رجفة الكتاب على خاصرتي وهم يدثرونه بتبجيلهم الصامت وحسهم الدافئ. كنت في نظرهم "حامل الكتاب" الذي يتوقعون ظهوره في ساعة المساء الثامنة، حامل ابجدية البلاد المحفورة على كتفي تمثال. بدوت لركاب الحافلة اصغر من تمثال، واكبر من راكب عابر من ركاب السوق. ولم ابلغ بعد مرتبة " صاحب الكتاب" في نظر نفسي للكتب التي انجزت تأليفها.

نذر كوديا الاكدي، حاكم لكش (٢١٤٤ . ٢١٢٤ ق.م) عدداً كبيراً من تماثيله المقدودة من الحجر الاخضر المائل للسواد "الديورايت" ، قدمها للاله ننكرسو في معبده، الذي بناه بامر من الاله الذي ظهر له في المنام في صورة الطائر انزو. يحتفظ اللوفر بثمانية من تماثيل كوديا، بعضها مقطوع الرأس. اما التماثيل الكاملة فيظهر كوديا فيها بالوضع المعروف بين تماثيل السلالات الاكدية، يضم كفي ذراعيه إلى صدره بوقار وجمود، ويسدل رداءه إلى قدميه، ويطوق هامته ، بعمامة دائرية واسعة. يبدو كوديا جالسا في تمثال برأس كبير مضغوط بلا رقبة. يصوب نظرة مستقيمة من عينين واسعتين، تحت حاجبين مقوسين. جسد قصير متصلب بلا تعاريج، جلسة خشوع وامتثال ووضوح، سطح املس مهيأ لحفر الكتابة عليه. لا يحمل صاحب التمثال كتاباً ، لكنه يصرح برؤياه في كتابة محفورة على طرف ردائه الطويل، وعلى ظاهر كتفه الصلب. كوديا، صاحب الرؤيا، المنقول من تلال لكش إلى اللوفر، يعرض في ضوءا المتحف المحبوس كتابته المحفورة على ظهره بالاتجاه المعكوس لنظرته المستقيمة، متجاهلا ما يحمل من نذور مخيفة على كتفيه.

اول لقاء لي بكوديا كان في المتحف العراقي عام ١٩٧٢، كان تمثالا مقطوع الرأس، نحت له رأس من نسخة اصلية بمتحف بنسلفانيا، ووضع في خزانة بالقاعة السومرية. ومن هذا اللقاء اتابع حكاية كتابي افترش رواق شارع الرشيد من جهة باب المعظم، وكنت قدمت إلى بغداد لتسلم النسخ الاولى من مطبعة "الحرية" . اسرعت بكتابي اختلس الخطو بين ظهور السائرين القلائل، مبهوراً بحملي المباغت لفطرتي العذراء ، التي انتهكت على حين غرة. تطلعت إلى من يحملني وكتابي، ينقلني فوق الرؤوس والعيون والاذان، على متن حافلة حمراء ذات طبقتين، من ذلك الاسطول الذي يشق شارع الرشيد بمحاذاة دجلة، خارجاً من باب العاصمة الشمالي باتجاه بابها الجنوبي. ارتقيت سلم الحافلة إلى طبقتها الثانية، واتخذت مقعدي في مقدمة الطبقة المطلة على الشارع ذي الطوارين المحمولين على اساطين دائرية، قريبا من شرفاته وافاريزه المشغولة بايدي اسطوات البناء البغداديين. حاملا كتابي، محمولا على خيوله التي رسمها عامر العبيدي على غلافه، مؤجلا النظر في صفحاته ، اسير فوق الشرفات والنقوش الآجرية، كتابي يسير معي، احمله ويحملني . ركاب متفرقون شغلوا المقاعد الخلفية استشعرت نزولهم وغيابهم في ظهيرة الشارع الظليل. تفرغ الطبقة العليا وتمتلئ اقداما ، اقدام خفيفة الوقع على السلم تحتل المقاعد حولي وتقترب مني، تحيط بكتابي الطائر معي. امراء الكتابة، تماثيل لكش، اخوة كوديا ، يصحبونني في هذه الرحلة اللاهبة، في الحافلة ذات الطبقتين، من اسطول شارع الرشيد الاحمر.

حملت ببشائر هذه الرحلة مع اخوة كوديا في الليلة الماضية، يتسابق نزلاء الفندق الذين تخففوا من ملابسهم بالصعود إلى السطح مع حلول المساء ليحظوا بالرقاد على سرير فارغ، بين الاسرة المصفوفة تحت نجوم بغداد، ويتوالى صعودهم حتى ساعة متأخرة من الليل. لم اتعرف النائمين عن يميني وعن شمالي، وفي تلك الليلة حلمت بالتماثيل القادمة من تلال بلاد اكد ترقد على اسرة سطح الفندق، وانا احلم بها الان في هذه الظهيرة تقلها الحافلة. تماثيل بارتفاع ٤٥ سنتمتراً ستحمل كتابي معها إلى معبد ننكرسو وتنذره هناك، وسيخطه كاهن المعبد على ظهري بمداد من زعفران. امتلأت الحافلة بالكائنات الصغيرة، واحسست احدها يجلس إلى جانبي، على المقعد الملاصق لزجاجة الحافلة الامامية المطلة على شارع الرشيد.

. "انت الآن صاحب كتاب، وانا واخوتي سنحتفل باللقب الذي نلته".

قال التمثال الصغير، المطوق الرأس بعمامة كوديا الدائرية . لم التفت إلى المقاعد وراء ظهري، فقد كنت متصلباً مثل شريكي على المقعد، اجلس بوقار، اضم كتابي إلى صدري:

. "بل اريد ان اكون حامل كتاب وحسب. هذا غاية ما اتمناه حقا".

"اجل، ان شئت، فأنت حامل كتاب ايضاً هل نظرت فيه؟ انه حاشد بالاخطاء الطباعية"

. " توقعت مثل هذا التشويه. ستقتل الاخطاء كتابي".

. " ستتعاظم الاخطاء في الكتب القادمة. انك لن تكتب نصا نقيا كما ترغب ، الا إذا حفرته على ظهرك. عندئذ لن يتغير الكتاب الذي تؤلفه ابدا".

. "لن ابلغ هذه المرتبة كما تعلم يا صديقي. اني حامل كتاب فقط. دعني استمتع بهذه الصفة. اتمنى ان اظهر بصحبة كتاب محمول في صورتي الاخيرة قبل ان يحين اجلي".

. " هذه امنية عظيمة، ستظهر في صورة كهذه عندما تمل تأليف الكتب، وتتكاثر اخطاء الطباعة، لا تنظر إلى كتابك واحفره على ظهرك".

اتذكر هذه المحاورة مع واحد من الكائنات الصغيرة التي تعلو ٤٥ سنتمتراً، أو اتخيلها ، وانا اتأمل صورة جاك دريدا الاخيرة. ظهرت الصورة كما شاء الفيلسوف بصفته " حامل كتاب"، بعد ان التقى احد تماثيل كوديا المحفوظة في متحف اللوفر. لا ينظر الفيلسوف في الكتاب المفتوح بين يديه، فكتابه الحقيقي محفور على ظهره.

الاديبة العراقية : غياب سافر!

فاطمة المحسن

بين فترة وأخرى نقرأ كتابا أدبيا لإمرأة عراقية، أو نشاهد موضوعا أو قصة او قصيدة لها في الصحف، وهذه الظاهرة لم تزد أو تنقص منذ خمسينيات القرن المنصرم. نسبة تكاد تكون ثابتة لاتتجاوز العشرين بالمئة بين من يكتب في العراق او ربما أقل بكثير حسب الاحصاء الدقيق. ولكن أيا منهن عدا نازك الملائكة، لم تشكل ظاهرة ملحوظة أو تثبت حضورا يشار اليه في الحياة الثقافية العراقية. ربما يجري ذكر بعض الأديبات في المراجعات العارضة، او لأسباب الاشادة بأنثوية نصهن او فضائحيته، ولكن من النادر ان يذكرن في تعداد المهمين ضمن الدراسات المرصودة للمراحل، او حتى بين أدباء الصف الثاني.

ربما لأن نتاجهن أقل مستوى من نتاج الرجال، ولكن الغريب أن الكثير من مشاهير الكتاب العراقيين الذين يتردد ذكرهم في الدوريات والمراجعات، يرفضون مقارنتهم بالنساء من أجيالهم حتى من باب رفع مكانتهم، فالكاتبات في عرفهم يقبعن في عالم خاص يعود الى الانثى وحدها لا الى جنس الكتابة .

الذين يكتبون عن سيرة الثقافة العراقية يحصون مقاهيها، وهي ملتقيات شهدت ولادة الأعمال الادبية، مثلما اغنت الأدب بصداقات وأفكار بعضها مثمر وبعضها نافل ويقرب من ثرثرات المتعطلين.ولعل أهم تلك الاماكن حسب ما يحصيها كاتبو السيَر الادبية بفخر: حسن عجمي والبرازيلية والشابندر والزهاوي وغيرها، إضافة الى نادي إتحاد الادباء وهو حانة تكاد تكون محرّمة على النساء. المقاهي أو أماكن لقاء الادباء هذه تغيب عنها المرأة تماما، ولنا أن نقيس مقدار التحضّر في هذه البيئات التي تسمى ثقافية.

نفهم ان المقاهي تطرد منها النساء من الباب، ولكن كيف لنا أن نفهم أن إتحاد الادباء تحول بفعل عادات رجاله الى مكان تطرد منه المرأة بكياسة. فالأدباء في العادة يستنكفون إصطحاب زوجاتهم الى هذا المكان، وعلى جري هذه العادة، من النادر ان يتواعد أديب مع زميلة او أديبة تشاركه في موضوع معين،أو يتبادل معها الحديث او الكتب، او يعرف بماذا تنشغل ثقافيا وكيف يفيد من معرفتها إنسانيا، فهو يتحرج من وجودها، مع انه يكتب لها وعنها صباح مساء،ويشكل غيابها ارتباكا في حياته، فالأديبة في العادة إما جميلة كي يقايضها بإعجابه وإما قبيحة لا يطيق منظرها.

لم أقرأ جملة صادقة مثل التي وضعها سليم مطر على لسان بطله المثقف في روايته "إمرأة القارورة ". يقول ما معناه : أشعر بكراهية خفية لكل إمرأة عراقية ألتقيها في الخارج. وهنا لاينبغي ان يؤخذ الاقتباس من رواية، على أنه مبعث شكوى أو تذمر نسوي من العراقي المهاجر، فالكثير من النساء العراقيات اللواتي عشن في الغربة يحملن شعورا مشابها للرجال من أبناء بلدهن عندما يجري اللقاء في مكان أجنبي، لان الحياة باعدت بينهما الى الدرجة التي أصبح فيها وجود أحدهما مع الاخر يستدعي التكلف في الاماكن التي لايضطر فيها الانسان سوى أن يكون نفسه. ولا يمكن والحالة هذه، ان تنتهي مشاعر الاستيحاش التي زرعها المجتمع بأفكار ومقولات يجيد المثقف حفظها، لهذا عندما أقرأ موضوعا لكاتب عراقي يمجد المرأة أو يتكلم عن حقوقها، أعرف أنه منافق او يغالب نفسه ومشاعره. أما إذا تحدث وزير او مسؤول عن ضرورة وجود النساء في حديقة الثقافة الغناء، فقل ان عقيدته قد علّمته من أين تؤكل الكتف.

ومن الخطأ الظن أن رجال الأدب في العراق يشعرون بالمنافسة من إمرأة تكتب مثلهم، فهم في الأصل لايتخيلون وجودها بينهم،فهي تقيم في مملكتها الخاصة التي تضفي لمسات طريفة وأنثوية على هذا الكار الرجالي الصعب. وعندما يكتب متابع فيهم عن فعالية معينة أو يستعرض حالات أدبية او موجة بعينها، لاتخطر بباله النساء إلا على نحو هامشي وعابر. والمضحك ان الكثير من معارضي النظام السابق كتبوا عن المتملقين والشعراء المرتزقة في ذلك العهد ولم يذكروا اسم إمرأة مع ان الشاعرات أبلين بلاء حسنا في هذا الميدان!.

هل هذا الامر يعود الى شعور قصدي بإمحاء سيرة الجنس الذي يسمى " لطيفا" او غيرة منه؟. بالطبع لا، فهم في الاصل لم يتعودوا وجود النساء، ولا يخطر ببال واحد منهم أن امرأة تنافسه قط. وأذكر مرة راجعت رواية لأحد الاصدقاء المقربين ونشرتها في صحيفة عربية، فحمل التلفون وصوته يهزج فرحا، وأعلن وشكره وإعجابه بلغتي الجميلة التي تتشبه بلغته!.

بالطبع لم أزعل فقد إعتدت هذا مذ بدأت صغيرة في عالم الكتابة الى يوم أن غزا الشيب رأسي،فكل صديق عرفته في عالم الأدب والصحافة هو إما وصي علي إما معلم. وأنا والحق يقال تمتعت بفضائل هذه الوصاية وشعرت بالدلال في رحابها، فأنا أعرف ان الرجل الذي تُحجز عنه المرأة يفقد بوصلة التعامل معها وأحسن علاقة يقيمها مع أمه وأبنته، ويعيش مع زوجته في كر وفر بين جهل ومعرفة، ومن الرجال مَنْ يقول لأمراته بعد عشرة طويلة إنت مازلت لغزا. وكنت أقول لنفسي أسلم العواقب أن تشعريهم بالوصاية، فهذا يرضي أبوتهم أو أخوتهم الناقصة، وتبقى المنافسة مؤذية وتافهة ولايأتي منها سوى الحمق.

عندما عدت الى بغداد بعد فراق طويل، ألتقيت وأنا في الطريق الى مقهى المثقفين عند شارع المتنبي بالناقد فاضل ثامر، وهو الان رئيس اتحاد الادباء،فمر برأسي شريط طويل لصداقة وزمالة عمل أستمرت الى يوم وداع الجريدة التي كنا نشتغل فيها معا. قدمني ثامر الى رجل يصاحبه: "هذه زوجة فلان الفلاني". فتحت عيني دهشة، ربما لانني عشت في الغربة طويلا، الى الدرجة التي تعودت إن المرأة تعرف بعملها لابزوجها،حتى ولو كانت نادلة مطعم.إستظرفت الأمر بعد الصدمة بالطبع، حتى ضحكت وزوجي منه طويلا، لأنني كنت إعيد تمثيله أمامه كي نتسلى حين نستعيد ذكريات زيارتنا بغداد.

ولكن حالتي ربما لاتشبه حالات الاخريات ممن جربن في عالم الكتابة، وأعرف إن بعضهن أصابهن القنوط أو الوسواس،وبعضهن فقدن الثقة بأنفسهن وأعتزلن العمل او قل نتاجهن، وبعضهن تضخمت لديهن الأنا حتى شابهت مشكلاتهن مشكلات الكثير من المشهورين. وأذكر أنني قرأت موضوعا لقاصة عراقية وهي شهادة لها في مؤتمر بالمغرب،قالت أن لغتها واسلوبها قد شقا دربا جديدا في الكتابة العراقية. كانت تتكلم عن عشتار كونها وريثة لها، فشعرت بالاشفاق عليها وعلى عشتار وسومر وبابل التي يظن الهوسوون العراقيون انهم ورثة حضاراتها الدارسة.

المجتمع الثقافي هو ما يسمى عرفا، الطليعي، المتقدم،المتحدي للمراتبية البليدة والقيم المتخلفة،وهذه الكلمات لفرط ما استخدمت من قبل المثقفين العراقيين،اصبحت مستهلكة في الذاكرة الادبية. فلنستعين ببدائل أكثر جدة في توصيف هذا المجتمع الذي يطيب لأصحابه الحديث والكتابة عن البوست مودنرزم.